٤٥٠٠ ثانيـــة
فى صحبة أم كلثوم
للدكتور زكى مبـارك

لم تسمح الظروف بلقاء الآنسة أم كلثوم بعد الذى دوّناه من لحظات التلاق فى كتاب « ليلى المريضة فى العراق » وهى لحظات قِصار ولكنها كانت جيّاشة بأقباس المعانى ، ولو طالت تلك اللحظات لظفرنا من سِحر الحديث بأطايب وأفانين

ولم يكن ذلك الحرمان عن هجر منها أو صدود ، فما يستطيع ذلك الروح أن ينسى أن له مآرب وجدانية من مساعرة أرباب الوجدان ، وإنما شاءت المقادير أن تصرفنا بالشواغل القاسية عن التأهب لمداعبة الأفاعى والصِّلال

وما معنى ذلك ؟

معناه أنى سأتحف أم كلثوم بصورة وصفية تبسم لها فى حين وتَعْبَس لها فى أحايين ، مع العرفان بأنى لم أقل غير الحق فى وصف ذلك الروح اللطيف

وهل لهذه الحمامة الوصلية رُوحٌ لطيف ؟

ما وازنتُ بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم إلا تذكرت قول شوقى فى الصوت الحنّان

وتَرَى فى اللَّهاة ما للمغنّى من يدٍ فى صفائه وليانِهْ

فهذه الحمامة تفرّد بلا وَهْى ولا إحساس فى نظر من يحكم بظاهر ما يندّ عن شفتيها الورديتين من أغانٍ وأحاديث

فهل تكون فى حقيقة الأمر كذلك ؟

إن كانت أم كلثوم بلا وَهْى ولا إحساس فعلى الأدب والفنّ العفاء . وكيف تُحرَم أم كلثوم قوة الروح وهى بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟

وأين من يزعم أن قلبه سَلِم من الشوق لأغانى أم كلثوم ، وما مرّت لحظة واحدة فى المشرق أو فى المغرب بدون زفرة أو لوعة تثيرها أغانى أم كلثوم ؟

وهل سمع الناس فى قديم أو حديث صوتاً أندى وأعذب من صوت أم كلثوم ؟

تلك الفتاة هى الشاهد على أن الله يزيد فى الخلق ما يشاء ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين !

ولكن كيف نحلّ هذه المشكلة : مشكلة الفرق بين غناء أم كلثوم وحديث أم كلثوم ؟

كأنما يخلق الألفة والانسجام حيث أبناء الفناء لا يعرفون الألفة والانسجام

وكأنما ينفث التوفيق والتنسيق فى قلوب تنحدر إلى قرار سحيق . . . »

* * *

على أننا لا نظلم الشعراء النابهين فنقول إنهم يتخلفون حيث يسبق المصلّون المجهولون . ففى الحرب الحاضرة شعر حسن لبعضهم لا يعنينا أن ننقله إلا أنه لا يقبل الإيجاز والاقتضاب

أما فى الحرب الماضية فقد ارتفع فيها « كبلنج » بالشعر الحامى إلى الذروة التى رفعته الشهرة إليها ، ونظم تلك القصيدة التى لا يسمعها انجليزى إلا سرت فى عروقه هزة الحمية وصالت نفسه صولة الكبرياء . ومنها :

الثأر هناك ...
لا يبلغنا إليه رجاء خادع ولا وهم كذوب
بل فداء من معدن الحديد
فداء بالأوصال والعزائم والأرواح
إنه لواجب واحد علينا
وإنها لحياة واحدة نعطيها
من ذا الذى تنهض قدماه وقد هوت الحرية
ومن ذا الذى يموت وقد عاش الوطن ! »

* * *

وموعدنا الحين بعد الحين بما نختار من هذه الشذرات ، وهى على قلتها بالقياس إلى غيرها مما تتسع له صفحات وصفحات

عباس محمود العقاد

الحل سهل : لأن العقدة مشتركة بينها وبين محمد عبد الوهاب وإليه وإليها انتهى الإبداع فى عالم الغناء

عبد الوهاب رجل أعمال وأم كلثوم رجل أعمال ، وذلك سر العبقرية عند هذين الروحين ، وهو الدليل على أن الله لا يَهَب المواهب لأهل التخاذل والانحلال ، والزهد فى جمع الثروة هو الآية الحق على التخاذل والانحلال . وغضبةُ الله على من يحسبنى أمزح فى هذا الحديث !

دعتنى أم كلثوم مرة لتناول العشاء فى أحد مطاعم القاهرة فأجبت الدعوة ، ولكنى رأيت أن أدفع عن نفسى ، فاستظرفتنى جداً وصرّحتْ بأنى لم أقل غير الحق حين قلت : « إنى أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين »

ولن أنسى أبداً موقف القَصَبْجى الملحّن وقد زعم أنه صائم مع أن العَشاء كان فى جوف الليل ولم نكن فى رمضان ولا شعبان ، ولكنه كان يعرف أن « حمامة الشرق » لا يسرها أن يكون القصبجى رجلاً له أمعاء تظامُ وتجوع كسائر الناس ، وكيف يكون فناناً وهو يحس الظمأ والجوع ؟!

أشهد أن البخل حقّ ، وأنه من خصائص أهل العبقرية ، وإلا فكيف صحبتُ الدكتور طه حسين عشر سنين ولم أتناول الغداء فى داره غير مرة واحدة لظروف قهرية قضتْ بأن تُمضى النهار كله فى درس شواهد الشعر المنحول سنة ١٩٢٦ ؟

وكذلك يكون شقيق الروح محمد عبد الوهاب ، فهو أبخل من الجارم بمراحل طوال ، وهو إلى اليوم لا يدرك أن الدينار قد ينقسم إلى دراهم ، وأن الدرهم قد ينقسم إلى فلوس ، إنما الدينار دينار ، فإذا انقسم فهو هباء ، وإليكم هذا الخبر الطريف :

نشر الموسيقار محمد عبد الوهاب كلمات فى مجلة الاثنين عن ذكرياته فى زيارة العراق ، وقد قرأت تلك الذكريات وأنا فى بغداد فحزنت لأنى عرفت منها أن الأستاذ الصراف خدعه فزيّن له الذهاب من دمشق إلى بغداد فى سيارة عربية لا انجليزية ، وكانت النتيجة أن يقضى ثلاثة أيام بلياليها فى الطريق بين دمشق وبغداد ، فصممت على تأنيب الأستاذ الصراف حين أراه ، ثم عظُمت الدهشة وعظم الاستغراب حين عرفت من الأستاذ الصراف أن الموسيقار عبد الوهاب هو الذى اختار تلك السيارة لأن أجرتها أرخص بمبلغ لا يقل بحال من الأحوال عن دينارين !

ماذا أريد أن أقول ؟

لعلى أريد القول بأن الاهتمام بجمع الثروة يدل على الشغف بحب الدنيا ، وحب الدنيا هو الأصل الأصيل لحيوات النوازع والغرائز والأحاسيس

وحب الدنيا كان السرّ فى عبقرية أحمد شوقى أمير الشعراء ، فقد صحبتُه سنوات كثيرة وهو يطوف على أملاكه بالقاهرة وضواحى القاهرة ، وشهدتُ كيف ينظر إلى كل بقعة من أملاكه وقلبُه يهتف : « كلُّ مليحة بمَذاقِ » ورحم الله شوقى ، فما مات إلا وهو حزينٌ حزين على فراق أملاكه الواسعة بأرجاء هذه البلاد

وحب الدنيا هو السرّ فى عبقرية عبد الوهاب وأم كلثوم ، عبد الوهاب ساكن العباسية وأم كلثوم ساكنة الزمالك ، وهل يستطيع مخلوق أن يقول إنه على شىء من الأدب أو الفن وجيوبُه خاوية ؟

آه ، ثم آه ! !

كنتُ غنياً وكانت لى أموالٌ مرصودة فى مصارف مختلفات ، ثم شاء القَدَر أن أترفّق بمرضاى من المِلاح فأنفق عليهم ما أملك ، فأنا اليوم فقير ، فقير ، فقير ، بحيث ترفض أم كلثوم أن تكون « ليلى المريضة فى الزمالك » بحجة أنها صحيحة ، لا بحجة أنى لم أعد أملك البِرّ بمرضاى من ذوات الخد الأسيل والطَّرف الغضيض !

وعجرتى إلى العراق هى سبب هذا البلاء ، فقد أعدانى العراق بالكرم وراضنى على البذل والجود ، فأنا اليوم بلا ذخيرة ولا عتاد

ألم تسمعوا أنى كنت أتمرد على رؤسائى بالجامعة المصرية وبوزارة المعارف ، فكنت أملك الزهد فى مناصب الحكومة فى كل وقت ؟

فإن صح أنى صبرت أخيراً على خدمة الحكومة أربع سنين فاعلموا أن أخاكم مُكرهٌ لا بطل ، وأنه لم يتمرغ فى تراب « الميرى » إلا وهو فى فاقة وإملاق

وآه ثم آه من الصبر على حسمة الحكومة أربع سنين !

وهل خُلق الشعراء لهذا الاستعباد ؟ وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفائدة النخيل والأعناب ؟

ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذى أخضعه الفن للقوافى والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع وما قيمة الفلسفة إن لم تحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع !

وما حديث الـ ٤٥٠٠ ثانية فى محبة أم كلثوم ؟

كانت النفس حدثتنى بوجوب السفر إلى الإسكندرية فى أواخر أيلول لأرى كيف يتجزر الصيف عن الخريف فى تلك الشواطئ الفسيح ، فرأيت على المحطة فتى من عُصبة الفن الجميل وهو يهتف : « أما ترى ثومة يا دكتور ؟ »

والتفتُّ فرأيت إنسانة نحيلة تكسح عينيها بنظارتين سمراوين وهى تحاور المودِّعين حواراً تقع فيه ألفاظ فلاظ على غير ما يُنتظَر من فتاة لها تلك المكانة بين البيض الخفرات من بُنَيّات وادى النيل

وأقبلتُ فسلَّمتُ تسليم الشوق بتهيُّب واحتراس ، لتفهم أنى لا أريد نضالها فى ميدان التنكيت ، ولكن الشقية تنابت وتجاهلتْ رغبتى فى البعد عن هذا الميدان ، ولم تكن إلا لحظة حتى اقتنعتُ بأن الزمالك تجاور بولاق !

ما الذى يحمل ثومة على خلع البُرقُع وهى تحاور الرجال وفيهم من لا يتأدب وهو يحاور النساء ؟

لم يبق بين ثومة وبين الفَصيلة النسائية أية صلة ، فهى اليوم رجل أعمال ، وهى أبو كلثوم لا أم كلثوم ! !

وقتُ ثومة لا يضيع فى مراجعة الأدب القديم والأدب الحديث ـ كما تسمعون ـ وإنما يضيع وقت ثومة فى تدبير المال لاقتناء النفائس من البيوت والبساتين

وثومة ليست غبية ، فهى تعرف أن البيئات الفنية يكثُر فيها الوباء ، وأنه لا موجب لطاعة الفِطرة التى يتجلى فيها الحَنَان النَّسوى ، لئلا يكون من أثر ذلك أن تدور حولها الأقاويل والأراجيف فى زمن الأقاويل والأراجيف

ومن أجل هذا لا تُجيد أم كلثوم تمثيلاً إلا فى مواقف الانفراد ، فهى كُتلة من الثلج حين تحاور رجلاً فى مواقفها التمثيلية ، وهى نارٌ تتأجَّج حين تخلو إلى نفسها فى موقف من مواقف التذكر والاشتياق

العُزلة هى الفرصة الوحيدة لانفجار العواطف فى صدر أم كلثوم ، لأن هذه الإنسانة تتوهم أن المجتمع لا يُحسن غير التجريح والاغتياب ، فهى تلقاه بلسانٍ حديد لا يُجيد غير السخرية والاستهزاء ، فإذا اعتزلت الناس أو توهمتْ أنها اعتزلت الناس صارت أمُّ كلثوم الحقيقية بشفتيها الورديتين وثناياها اللؤلؤية وأنفها المسنون . ولو استبحتُ مغازلة هذه الشقية لقلتُ إن ابتسامها يصدُر عن وادٍ سحيق هو وادى الخلود !

وما أسعدَ من يظفر بابتسامة صفية من أم كلثوم ولو لحظة واحدة من عمر الزمان !

ها نحن أولاء فى محطة القاهرة ، وإنى وإياها نختلفان ، فهى ذاهبة إلى المنصورة وأنا ذاهب إلى الإسكندرية ، وسنفترق فى طنطا كارهين أو طائعين

وأترفق فأقول : ألا تحتاج الحمامة الموصلية إلى رجل يضايقها لحظات ؟

فتجيب : وأنت ؟ ألا تحتاج إلى من يضايقك ساعات ؟

ثم تأخذ فى الحديث بعنف ولجاجة وسيال ، فهل كان بينى وبين هذه الروح ثأرٌ قديم ؟ وهل سمعتْ أنى اغتبتها فقلت إنها ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ وهل نقل الوشاة أنى زعمتُ أنها أطيب من العِطر وأرقّ من الزهر المطلول ؟

لا أعرف ما ذنبى عند أم كلثوم ، ولم أخرج على الأدب فأقول إنها خير ما أخرجتْ مصرُ من ثمرات ، وإنها ألطف روح سكن الزمالك وتخطَّر فى شارع فؤاد ؟

ما هفوتُ فى حق أم كلثوم إلا مرة واحدة حين قلت إن حنجرتها مسروقة من الحمائم الموصلية ، وكان الرأى أن أقول إن حمائم الموصل سرقت رخامة الصوت من الحنجرة الكلثومية

ثم تشتطّ أم كلثوم فى المزاح الثقيل ، ولكن مع مَنْ ؟ مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو سُدِل على سرائرها ألف حجاب !

هل تذكرون المصباح المغطَّى بالأوراق الزُّرق ؟

هو قلبُ أم كلثوم ، لو تعلمون !

وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق الأواجه ذلك القلب الوهاج فما هي تلك اللفظة السحرية ؟

قلت : إن حمامة الشرق تستر بزاحها النليظ قلباً يحترق

فالتفتت الفتاة التفاتة رشيقة وهي تستزيد ، فقلت : وقد حدثتني ليلى أن الأنفى تغفو أوقاتاً طويلة ثم تستيقظ حين تجد الفرصة لتخدير الفريسة بالسم الزعاف

وبهذا الكلام تنبهت أم كلثوم من سُباتها المتكلَّف المصنوع ، وابتسمت ابتسامة لن أنساها ما حييت ، فقصصتُ عليها قصة ليلى حين قرأتُ في كتب التاريخ الطبيعي أن الحيات تثور وتهتاج حين ترى إنساناً أخضر العينين ، فزعمت الشقية أنها لم تكن تعرف أني أخضر العينين ، فقلت : وما السرّ في نفرتك مني أيتها الرقطاء ؟

ورفقت أم كلثوم ولطفت بعد التأبي والتمنع ، وانطلقت تتحدث بلا تكبر ولا ازدهاء ، فمن قال إنه عرفها قبلي فهو كاذب ، لأني أول من نزع الأوراق الزُّرق عن ذلك القلب الوهاج ، وأنا أول من فرض على أم كلثوم أن تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق وإخلاص

من حق أم كلثوم أن تكون في دنياها رجل أعمال ، فنحن في عصر سخيف لا يقيم وزناً لمواهب أهل الأدب والفن إذا فاتهم سناد الجاه والمال

ولكن ... ولكن دنيا أم كلثوم صدّتها عن الانتفاع بأرباب المواهب ، فلو كان لأم كلثوم مستشار أمين لوصلت إلى الإعجاز في الغناء والتمثيل ، فلا عفا الله عمن من سدُّوا هذه الروح عن الاستئناس بأذواق أهل الآداب والفنون !

وهل أنسى بشاشة الاستبشار بتصوير عصر الرشيد ؟

كان يمكن أن يكون فلم « دنانير » أعجوبة الأفلام التاريخية لو كانت أم كلثوم تعرف أن في مصر رجالاً أدقّ ذوقاً وإحساساً من فلان وفلان ، وأن الانتفاع بآراء هؤلاء الرجال قد يعود عليها بالخير الجزيل ، ولكن أم كلثوم امرأة وإن كانت رجل أعمال ، والمرأة لا تفلح حين تتوهم أنها أعقل من الرجال

فلم دنانير جميل جميل ، ولكن تعوزه قوة الروح ، ولأم كلثوم أن تغضب كيف تشاء ، ولفلان أن يقتل نفسه من الغيظ ، فقد أخلف الظن به كل الإخلاف

إن هذا الفلم يلخص رأينا في أم كلثوم : فهي لا تجيد إلا عند العزلة والانفراد

فأين من يجعل أم كلثوم من أزهار المجتمع ؟

أين من يحوّل هذه الفتاة إلى روح لطيف يشيع في المجتمع معاني الأنس والانشراح ؟

إن كانت هذه الفتاة تحب أن تكون «ابن بلد» فقد ظفرتْ بما تريد ، أما إن كانت تحب أن تكون أعظم من أم كلثوم فلذلك حديث غير هذا الحديث

ثم وصل القطار إلى طنطا فانتقلت إلى قطار المنصورة وبقيتُ أتشوف إلى الأسكندرية ، وذلك آخر العهد بتلك الروح ، فإن رضيت عن هذا المقال فقد نلتقي في مصر الجديدة أو في الزمالك ، وإلا ... .

زكي مبارك

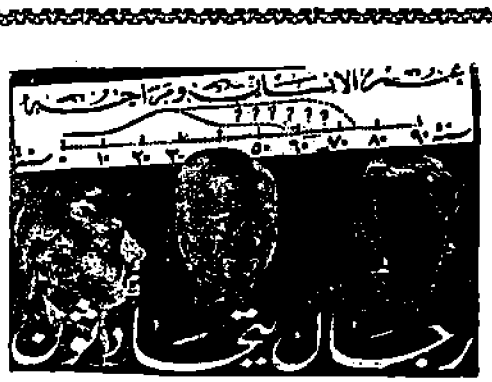

(سجل تجاري ٥٢٢٧)